

تجديد المذهب الشيعي

الكتابات عن الشيعة تدور فقط حول عقائدهم التي كانت سائدة في العصرين الأموي والعباسي وما بعدهما، ومن النادر أن نجد متابعة لما حدث في المذهب الشيعي من تطور.

ومن الكتب القليلة التي نجد فيها متابعة لعملية تجديد الفكر الشيعي كتاب (الثورة الإيرانية- الجذور- الأيديولوجية) وكتاب (الثورة الإيرانية- الصراع- الملحمة- النصر) وهما للدكتور إبراهيم الدسوقي شتا أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وكتاب (إيران من الداخل) للأستاذ فهمي هويدي وهو حصيلة مشاهداته واتصالاته مع قادة إيران، وميزة هذا الكتاب أن ثورة إيران في فبراير ١٩٧٩ لم تكن بعيدة عن الأستاذ فهمي هويدي، لأنه كان يعمل في ذلك الوقت في مجلة (العربي) بالكويت على مسافة ٤٠ دقيقة بالطائرة من طهران، وكان يقيم في حي تسكنه أغلبية شيعية هو منطقة (بنيد القار) وتجمعت لديه معلومات كثيرة من حصيلة الاتصال المباشر ببعض العناصر وثيقة الصلة بالثورة، ومن الاطلاع المبكر على كافة أدبيات ومطبوعات الثورة.

وذهب الأستاذ فهمي هويدي إلى إيران على أول طائرة مدنية هبطت في طهران استأجرها شيعة الكويت لتقل وفدا لتهنئة الإمام الخميني بنجاح الثورة. وتعددت زيارته لإيران بعد ذلك، وهذا ما يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة لفهم ما جرى في الفكر الشيعي وفي النظام السياسي في إيران، خاصة أنه ظل على وعي بصعوبة الوصول إلى (الحقيقة) في مجتمع باطني بطبيعته وتاريخه، لديه عقدة التوجس من الأجانب راسخة في الوعي الرسمي. وقد استفاد بالمراجع العربية التي عثر على بعضها في مكتبات (قم). وبعد الدراسة والمعايشة توصل إلى أن فهم الحاضر

الإيراني يتعذر بدون استيعاب التاريخ، وأن مفاتيح الحاضر كامنة في الماضي، وتوصل أيضا إلى أن التجربة الإيرانية لا ينبغي أن تحسب على الإسلام بأية حال من الأحوال، إنما ينبغي أن تحسب بمقدار البعد أو القرب من مبادئ وتعاليم الإسلام، كما توصل إلى أنه ليس من الضروري أن تكون مع الشيء كله أو ضده كله، فقد تنفق مع جانب وترفض جانبا آخر.

كانت بداية التجديد في المذهب الشيعي في العصر الحديث بدخول الإمام الخميني من باب الفقه السياسي، وفتح باب الفتوى على مسائل العبادات وعلاقة الناس بالله، وأطل منه على مختلف القضايا السياسية والاجتماعية، أي علاقة الناس بالناس، والشعب بالحكومة، والدولة بالعالم الخارجي، وكانت هذه لغة جديدة في الخطاب الديني في (قم)، وفي إيران كلها.

ولقد ازدهر الفقه الشيعي في إيران في عصر البويهيين في القرن العاشر الميلادي واستمر مزدهراً في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وكان الخليفة الناصر (السلجوقي) ١١٧٨-١٢٢٥ يعاونه عدد من الوزراء الشيعة، وفي هذه المرحلة ظهرت الكتب الأساسية للمذهب الشيعي. إلى أن أعلن الشاه إسماعيل الصفوي أن المذهب الشيعي الجعفري هو المذهب الرسمي لإيران، وأصدر الخليفة قراراً بأن تضاف إلى الأذان عبارة (أشهد أن علياً ولي الله) وكانت أغلبية سكان إيران وعلمائها من أهل السنة، ومنها خرج الإمام أبو حنيفة، والبخاري، والزمخشري وأقدم المفسرين، ورجال الحديث والفقه وغيرهم من أعلام أهل السنة.

وفي العصر الحديث ظهرت ثلاث نظريات أساسية، النظرية الأولى هي نظرية (الولاية) وهي الصيغة التي ابتكرها فقهاء الشيعة لتحل محل (الخلافة)، وبذلك يصبح رجل الدين الشيعي هو (الولي) وفي منزلة موازية لمنزلة الحاكم (الخليفة)، والثانية هي نظرية (المرجعية) لتكون صيغة موازية لفكرة الحكومة، والثالثة هي

نظرية أو مبدأ (التقليد) أى التزام الشيعة بتنفيذ تعليمات وأحكام أئمتهم لتحقيق الانتماء للمذهب.

وظهر فى تيار (الأصوليين) فى المذهب الشيعى تياران: الأول يرى استحالة تطبيق الشريعة فى غيبة الإمام، ويدعو للمشاركة فى الحياة السياسية فى حدود، ولا يزال ذلك موقف أغلبية مراجع (الحوزة) إلى الآن. وأما التيار الثانى الذى قاده الإمام الخمينى فىرى أن الفقهاء هم الذين يجب أن يقيموا الدولة الإسلامية على رغم غيبة الإمام. وتبلورت دعوة الخمينى فى نظرية (ولاية الفقيه) بعد أن نفاه الشاه إلى النجف بالعراق. وعزز دعوته بالقول: كيف يتم إنفاق نسبة الخمس المفروضة فى أرباح كل شيعى؟.. وهل تلقى هذه الثروة فى البحر؟ أو ندفنها فى التراب إلى حين ظهور الإمام الغائب؟ أو نوزعها على ٥٠ ألفاً أو ٥٠٠ ألف هاشمى من آل البيت؟ أو الأولى إنفاقها فى تسيير شئون الدولة وتحسين أحوال الناس؟. وهكذا بدأ الدعوة إلى حكومة الفقهاء، ويقول: إن الفقهاء لهم الولاية من الله ويجب على الفقيه أن يعمل بعوجب ولايته قدر المستطاع، فيأخذ الزكاة والخمس لينفق كل ذلك فى مصالح المسلمين. وعليه- إن استطاع- أن يقيم حدود الله. ويستند فى ذلك إلى تفسيره الخاص لقول الإمام على (الفقهاء أمناء الرُّسل). على أن الأمانة ليست فقط فى تفسير أحكام القرآن والحديث ولكن فى تنفيذها أيضاً. ويكرر الخمينى القول: (الفقهاء حكام على الملوك) والحاكم الأعلى هو (الفقيه) الذى يحيط بجميع الأحكام الإسلامية، ويكتفى بقية الولاية والعمال بالعلم بما يتصل بمهمتهم.. والاستفادة من ذوى الاختصاص العلمى والفنى فى حدود الأعمال الإدارية والفنية، أما الإدارة العليا للدولة، والقضاء، والحكم، فتلك أمور يختص بها الفقيه.

وبلاحظ فهى هويدى على نظرية ولاية الفقيه عند الخمينى عدة ملاحظات. منها عدم وضوح كيفية ممارسة الفقيه للولاية، وكيف يطبق مبدأ الخمينى (الفقهاء هم

الحكام الحقيقيون، والسلاطين عمال لهم) كما جاء في كتاب الخميني المشهور (كشف الأسرار) الذي صدر في الأربعينات، وفي هذه النظرية التي طرحها الخميني على طلاب حوزة النجف بالعراق في منتصف الستينات ثغرات، كما أنها لم تقدم صياغة لنظرية متكاملة.

□□□

وكما يذكر فهمي هويدى فإن الإمام الخميني لم يكن أول قائل بولاية الفقيه، ولكنه هو الذى قدم الفكرة فى الظرف التاريخى المناسب فتحوّلت (ولاية الفقيه) إلى (حكومة الفقيه)، وكانت هى الصيغة التى طرحت لتملأ الفراغ فى قمة الهرم الشيعي فى زمن الإمام الغائب، والإمامة فى المذهب الشيعي من أركان العقيدة وليست من الفروع كما هى عند أهل السنة. بل إن قضية الإمامة هى أهم ما يميز الشيعة الإمامية عن أهل السنة وعن فرق الشيعة الأخرى. ففى أصل عقيدتهم أن الله لا يخلى الأرض من (حجة على العباد، من نبي أو وصي، ظاهر أو غائب مستور)، فالإمام عندهم منصب إلهي، والذى يختاره هو الله بسابق علمه كما يختار النبي، وبأمر الله النبي بأن يدل الأمة عليه. ويعتقدون أن الله أمر نبيه بأن ينص على الإمام على، واستمدت الإمامة بعده من النص حتى الإمام الثانى عشر (محمد المهدي المنتظر). وإزاء هذا العمق الاعتقادي للإمامة يبدو أمرا بالغ الشذوذ أن يظل الشيعة الإمامية بغير قيادة طوال ١٢ قرنا، ومن الناحية التاريخية تشير كتب الشيعة إلى أن الإمام الثانى عشر بعد أن اختفى تولى النيابة عنه فى قضاء شئون الشيعة أربعة فقهاء هم: عثمان بن سعيد، ثم ابنه الشيخ الخالنى (المتوفى سنة ٣٠٤ هـ) ثم الحسين بن روح النويختى (المتوفى سنة ٣٢٦ هـ) ثم على بن محمد السمرى (المتوفى سنة ٣٢٩ هـ).

والفقيه الشيعي له دور كبير، فهو مرشد روحى، يفتى بالحلال والحرام، وهو يتلقى الزكاة والخمس من أرباح كل شيعي، وهذا أدى إلى الاستقلال الاقتصادى للفقهاء

والمؤسسة الدينية الشيعية، مما جعل هذه المؤسسة غير مرتبطة بالحكام، وبالتالي تحقق لها الاستقلال السياسي أيضا. وفي المذهب الشيعي أحاديث كثيرة ترفع شأن الفقهاء مثل: (الفقهاء أمناء الرُّسل، ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل يا رسول الله، وما دخولهم في الدنيا؟ قال: أتباع السلطان، فإن فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم) ومثل (علماء أمتي كسائر الأنبياء من قبلي) ومثل (العلماء ورثة الأنبياء- العلماء أمناء- الفقهاء حصون الإسلام كحصن سور المدينة لها- منزلة الفقيه في هذا الوقت كمنزلة الأنبياء في بني إسرائيل) ومثل القول المنسوب للإمام جعفر الصادق: (الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك) وقد كرر الإمام الخميني هذه العبارة كثيرا في محاضراته.

□□□

وقد حدد كبار علماء الشيعة) وظائف الفقهاء ومنها: **الإفتاء**، وعلى الرعية اتباعهم وتقليدهم في أحكامهم- و**القضاء**، وعلى الرعية قبول أحكامهم- وتطبيق الحدود والتعزيرات- و**الولاية** على أموال اليتامى بما في ذلك البيع والشراء والمعاملات المتعلقة بها. وكذلك الولاية على أموال الغائبين عن ديارهم وأموال للجائنين والسفهاء- والولاية على عقود الزواج- والتصرف في أموال الإمام (نصف الخمس- والمال للجهول مالكة- والمال الذي لا وارث له) وبذلك فإن هذا المفهوم يعني أن ولاية الفقيه تشمل كل أمور الدين والدنيا. وهذه هي الفكرة التي تبناها الإمام الخميني وظل ينادى بتحقيقها.

هذه الفكرة عن الولاية المطلقة للفقيه وجدت في ذلك الوقت انتقادا ومعارضة من زعيم شيعي عراقي معروف هو السيد الخوئي في النجف، كتب رسالة بعنوان (أساس الحكومة الإسلامية) يرفض فيها هذه الدعوة، كما رفضها الفقيه الشيعي اللبناني الشيخ محمد جواد مغنية في كتابه (الخميني والدولة الإسلامية)، الذي رفض فيه فكرة سيطرة الفقهاء على الحكم واحتكارهم للسلطة السياسية، وتمسك

بأن الأصل عدم ولاية أى إنسان على آخر إلا ما خرج بأية محكمة أو رواية قائمة، وأن للجهتد العادل له ولاية الفتوى والقضاء وإدارة الأوقاف وأموال الغائب وفاقدا الأهلية، ولا تتعدى ذلك. وبذلك فإن الشيخ محمد جواد مغنية يفرق بين الإمام المعصوم وهو غائب وغير موجود، وبين الفقيه واختصاصه محدود، ولذلك فإنه يرفض نظرية الخمينى بأنه لا فرق بين ولاية الإمام المعصوم الغائب وبين ولاية للجهتد العادل وأن وظيفتهما واحدة حتى فى السلطة والحكم. وانتهى الشيخ محمد جواد مغنية إلى أنه ليس هناك دليل على وجوب طاعة الفقيه كطاعة الإمام.

والنظرية المعارضة للخمينى التى طرحها الشيخ محمد جواد مغنية هى أن اختيار رجال الدولة فى العصر الراهن يجب أن يكون بيد المسلمين للحكومين، وليس بيد الفقهاء، لأن ولاية الفقيه أضعف من ولاية الإمام المعصوم، وعلى ذلك يمكن أن يتولى أمر الدولة غير المتخصصين فى الشريعة، ويمكن أن تتفرغ طائفة من علماء الشريعة لصياغة قوانين تتفق مع الكتاب و السنة وتقرب من العقول والأفهام.

ويقول الشيخ محمد جواد مغنية: إذا ساغ للشيخ محمد عبده أن يقول: قد تجد فى أوروبا مسلمين بلا إسلام وفى البلاد الإسلامية إسلاماً بلا مسلمين. فإنه يسوغ القول بأن أية دولة تحسن العمل فهى مسلمة، حتى لو كان قادتها من غير الفقهاء، وأية دولة تسيء فليست من الإسلام فى شىء حتى لو تخرج قادتها من النجف أو الأزهر!.

□□□

يصف فهمى هويدى مدينة (قم) الإيرانية التى ارتبط اسمها باسم (الحوزة العلمية) فيقول: إن الحوزة العلمية فى هذه المدينة ليست معهداً علمياً واحداً كما يتصور الكثيرون، ولكنه ينصرف إلى المدينة كلها باعتبارها ساحة لتلقى العلم فى عديد من المدارس الدينية مختلفة المراتب، ولا علاقة للدولة بإدارتها أو الإنفاق عليها، وهى تحت رعاية رءوس المذهب الذين يطلق عليهم اسم (مراجع التقليد) ويصل عدد

المدارس فيها إلى ٥٥ مدرسة، وكانت الدراسة في الحوزة العلمية مقصورة على الذكور. وفي السنوات الأخيرة دخلتها الفتيات وصارت لهن عشر مدارس. وأقيمت جامعة الزهراء للفتيات في قم تتسع لإقامة وتعليم ١٥٠٠ فتاة، وبدأت قبول أول دفعة من الفتيات عام ١٩٨٦ وبذلك وضعت اللبنة الأولى في (حوزة النساء). ولا تزال المساجد هي مقر الدراسة، وفيها يلقي الشيوخ الدروس على تلاميذهم، والمدارس هي مقر الإقامة والذاكرة. وفي المدارس القديمة يحصل كل طالب في المرحلة الأولى على مبلغ كل شهر يدبر به أمور معيشته وكتبه، ويسكن كل ٢ طلاب في غرفة واحدة، ويتولون الطبخ والغسل والتنظيف بأنفسهم. ولكن الوضع مختلف في المدارس الحديثة التي بنيت بعد الثورة، ففيها مطاعم، وفرشت أرضية الغرف بالموكيت، وينام الطلاب على الأرض، وهذا تقليد شائع في المجتمع الإيراني وليس مقصوراً على الحوزة وحدها. ويتدرج التعليم في مراحل: المرحلة الأولى خمس سنوات يدرس فيها الطالب اللغة والبيان والفقه والأصول وعلم الكتاب. وكل الكتب باللغة العربية ومنها ألفيه بن مالك. والمرحلة الثانية ثلاث أو أربع سنوات ويبدأ الطالب فيها في التخصص على يد أحد المراجع. ويتقاضى الطالب راتبه من خزائن المرجع، ويقوم في أحد البيوت التي ينفق عليها المرجع ويتخصص في هذه المرحلة في التفسير، أو الفلسفة، أو نهج البلاغة (خطب وكلمات الإمام علي) أو التاريخ والاقتصاد المقارن.

والمرحلة الثالثة من التعليم غير محددة بفترة معينة وهي أشبه بالدراسات العليا في الجامعات العليا، وتؤهل الطالب لكي يضع قدمه على أبواب مرحلة الاجتهاد. والدراسة في هذه المرحلة تنحصر في إعداد البحوث الفقهية، وتلقى العلم من المراجع أنفسهم. ويصبح الطالب مجتهداً حين يقرر المرجع ذلك ويعطيه إجازة بعد أن يعد بحثاً أشبه برسالة الدكتوراه يسمى (الرسالة العلمية). والدارس يحصل على لقب علمي بعد كل مرحلة. ففي المرحلة الأولى (مبتدئ) وبعد المرحلة

الثانية يمنع لقب (ثقة الإسلام) وبعد المرحلة الثالثة يصبح (حجة الإسلام). وإذا أجاز للاجتهد فإنه يحمل لقب (آية الله). وإذا بدأ يمارس الاجتهاد في حلقات الدرس ويؤسس قاعدة شعبية في الحوزة ويقبل عليها (المقلدون) فإنه يصبح (آية الله العظمى) وإذا اتسعت دائرة مقلديه فإنه يصبح (مرجع التقليد) ويظل محتفظا بلقب آية الله العظمى.

وهذا هو البناء الهرمي للسلطة الدينية في إيران.

□□□

ويصف فهمى هويدى عالم المراجع، فيقول: إنهم دولة داخل الدولة. لا سلطان للدولة عليهم، بل إن المرجع يفوق الدولة أحيانا في أن أتباعه يدينون له بالولاء ويتجاوزون في ذلك حدود الولاء للدولة. فالمراجع هم قيادة الطائفة عقائديا وسياسيا. والشيعية ملزمون باتباع المراجع، وهذا ما يسمونه (التقليد) ويعتبرونه من أصول المذهب. ومراجع النجف في العراق كان لهم نفوذ أكبر من مراجع إيران في الستينات، ويليهم المراجع في منطقة الخليج والجزيرة (المنطقة الشرقية بالسعودية) ولبنان، وعتد هذا النفوذ إلى غرب أفريقيا حيث يكثر المهاجرون اللبنانيون الشيعة. وقد انتقل مركز الثقل بعد ذلك في قيادة المذهب الشيعي من النجف الأشرف إلى قم. ولكل مرجع مملكته العريضة التي تتجاوز أحيانا حجم دولة، وتمتد إلى المهاجرين والاتباع في دولة أخرى ولديه موارد كبيرة من أموال الزكاة والخمس. ولكل مرجع (وكلاء) يمثلونه في تجمعات (المقلدين) يقومون بدور حلقة الاتصال. وللمرجع (هيئة مكتب) لمتابعة شؤون الأتباع المقلدين وإدارة الشؤون المالية، وأحيانا يكون أعضاء المكتب أقرب إلى الوزراء، يختص أحدهم بالشؤون العلمية، وآخر بالشؤون المالية، وثالث بالشؤون الإدارية، ورابع بشؤون الخدمات.. وهكذا. وللمراجع قوة ووزن نتيجة الاستقلال المالي وترتب على ذلك استقلال سياسي وفكري عن الدولة.

ويضرب فهمى هويدى مثلاً بالمرجع الشيعى سيد محمد رضا كلباىكانى فقد كان عدد أتباعه بين ١٠ و ١٣ مليون نسمة فى إيران وباكستان وأفغانستان والخليج والسعودية، وله عشرة آلاف وكيل يمثلونه فى تلك المناطق، ويتلقى أموالاً بالملايين من أتباعه. وبينما تلاحق الدولة الناس وتذهب إليهم لتحصل على الأموال، فإن الوضع معكوس بالنسبة للمرجع، فإن الناس هم الذين يأتون إليه ليدفعوا الزكاة والخمس. وكان هذا المرجع يشرف على ٦ مدارس أنشأها ويتولى الإنفاق على تلاميذها، بالإضافة إلى مجمع حديث يضم مدرسة ومسجداً ومكتبة، وهو يدفع نفقات تلك المدارس المجانية، ويسهم مع غيره من المراجع فى نفقات ٤٥ مدرسة دينية فى أنحاء إيران، وأنشأ مستشفى فى قم به ٢٠٠ سرير للعلاج مجاناً، ويتكفل بجميع نفقاته، وأقام مستشفى آخر فى بلدة (يزد) الإيرانية. ومدينة الزهراء فى جنوب لبنان لإيواء وتعليم أبناء الشهداء، وله مكتب يتبعه فى لندن يشرف على شئون أتباعه ويعمل فيه ١٤ موظفاً، ويرسل بعثة حج كل سنة يتحمل نفقاتها، هذا بخلاف المساعدات التى يقدمها للمحتاجين.

وهذا النموذج يؤكد فعلاً أن المراجع دولة داخل الدولة فى النظام الشيعى. ويكشف فهمى هويدى عن الخلاف بين المراجع الكبار حول مسألة ولاية الفقيه، بينما يتصور معظم الدارسين للفكر الشيعى الجديد أنها مسألة يتفق عليها الجميع. والحقيقة أن هناك اتفاقاً بين الجميع على المبدأ، مبدأ ولاية الفقيه، ولكن الخلاف بينهم على نطاق وحدود الولاية.. هل تشمل الحكم وإدارة الدولة أو هى مقصورة على الشئون الدينية؟.

أغلبية المراجع- كما يقول فهمى هويدى- ضد فكرة إقامة الدولة التى يحكمها رجال الدين، ويقولون: إن الإمام الذى له الحق فى الحكم هو الإمام الغائب، أما رجال الدين الكبار فلهم ولاية الفتوى، والقضاء، وإقامة الشعائر، والإشراف على

إدارة الأوقاف. وبعض آيات الله يقولون بأن ولاية الفقيه ليست وظيفة سياسية، إنما هي مسألة فقهية لا شأن لها بالسياسة.

□□□

والتيار السائد في الفقه الشيعي، وفي الحوزات العلمية في قم ضد فكرة الولاية المطلقة للفقيه التي نادى بها ومارسها الإمام الخميني، وأيده فيها آية الله منتظري الذي جاء بعده. وكان آية الله شريعتمداري أول من جاهروا برأيهم في معارضة صيغة الولاية التي تبناها الخميني. وسجل شريعتمداري رأيه في بيان صدر عنه، وفي تصريحات صحفية عديدة، وكان بذلك معبراً عن عدد كبير من آيات الله في قم ومشهد واصفهان في إيران، وأيضاً في النجف في العراق وعلى رأسهم آية الله الخوئي. وعدد آخر من آيات الله يرفض ولاية الفقيه من حيث المبدأ، وهؤلاء يرون أن الولاية للإمام الغائب وحده ولا تجوز لغيره، وفي الوقت ذاته فإنهم ضد اشتغال الفقهاء بالسياسة، ويرون أن رسالتهم مقصورة في التربية والتوجيه الديني. وبعد قيام الدولة الدينية التي يحكمها الفقهاء صارت الولاية مناصب يسعى إليها رجال الدين ويتنافسون عليها. وبعد أن كان آيات الله عاكفين على الدرس والبحث والتعليم الديني انشغلوا بريق السلطة. ولأنهم بشر قبل أن يكونوا فقهاء، فقد أطلت فتنة التنافس برأسها وأفسدت العلاقات التي كانت قائمة على الزهد والورع، وبعد أن كان الفقهاء يتمتعون بالاستقلال عن وظائف الحكومة أصبحوا جزءاً من السلطة، وفقدوا بذلك استقلالهم عنها، وأغرقتهم المواقع التنفيذية في تفصيلاتها وتعقيداتها، وأصبحت أوجه القصور والفساد في هذه المواقع تنسب إلى الفقهاء أنفسهم. ولأن الفقهاء بطبيعة تكوينهم وثقافتهم لاختبرتهم لإدارة مرافق الدولة فقد أثر ذلك على كفاءة الأداء في هذه المواقع. ولذلك دعا حجة الإسلام مهدي هاشمي إلى استقلال رجال الدين عن جهاز الدولة الرسمي والبيروقراطي وابتعاد الفقهاء عن وظائف الحكومة.

□□□

يلخص فهمى هويدى تجربته ومعايشته للفكر والمفكرين الشيعة فيقول: إن العلماء والبسطاء يحكمهم الثالث: الحسين، وعاشوراء وكربلاء. وليس يسيرا أن يصل الانسان إلى أعماق الإيراني. فالباطنية خرجت من هنا، وهم أساتذة التقية، والمبشرون بها. وكلما اقترب الباحث من أعماق الناس اضطر للخوض في أعماق التاريخ، حتى عام ٦١ هجرية سنة مقتل الحسين في كربلاء ومصارع أهل بيته وأصحابه، في يوم عاشوراء الذي يحفظه أطفال الشيعة بكل تفاصيله وشخصه، ويستحضرونه في كل مناسبة. وجميع الشيعة الجعفرية (كربلائيون) ولا تجاوز الحقيقة إذا قلنا إن عندهم (التفسير الكربلائي للتاريخ) ونموذج لهذا الفكر كتاب بعنوان (عاشوراء استمرار لحركة الأنبياء) مؤلفه السيد محمد تقى المدرسى يقول فيه: كربلاء لها علاقة بكل شىء في الحياة.

وفصائل التطرف والتشدد في الفكر الشيعي الآن يتخذون مدينة (أصفهان) الإيرانية معقلا لهم. وأصفهان كانت مركز المرجعية الدينية للشيعة الإمامية في الدولة الصفوية (١٥٠١-١٧٢٢م) وهي الدولة التي فرضت المذهب الشيعي على إيران بعد أن كان أهلها من أهل السنة وأغلبهم شافعية، وفي أصفهان خرجت الدعوة إلى (الخيار الكربلائي). ففي كربلاء كان الإمام الحسين وصحبه هم رمز الحق والعدل، وأحاطت بهم رموز الظلم تطاردهم، وفي نفس الوقت تخلى عنه أهل الكوفة، وأفتى القاضي شريح بوجوب قتال الحسين، فأحاط به ثلاثون ألفا من جيش يزيد بن معاوية يتقربون إلى الله بسفك دمه-كما يروى الإمام جعفر الصادق- ولم يجد الحسين ومن معه سوى صحراء كربلاء يلجئون إليها، واستمرت الحرب، ولم يتراجع الحسين، واختار الاستشهاد، حتى قتل كل أصحابه، وكل أهله وفيهم طفلاه الرضيعان، وسقط هو وفي جسمه مائة سهم- كما يقال- وقُطع رأسه، وسُبى من بقى من آل البيت.. فالخيار الكربلائي هو اختيار المواجهة، والقتال، والسمود

حتى آخر رجل وطفل، فإن تحقق النصر كان بها، وإن استشهد الجميع فقد ساروا على درب الحسين ولحقوا به وتحقق لهم المراد.. وتتناقل كتب التراث الشيعي أنه في يوم عاشوراء (رفرف النصر على رأس الإمام الحسين، وخُير بين النصر والشهادة، فرفض النصر واختار الشهادة).

□□□

يشير فهمي هويدى أيضا إلى أن المرأة لها دور فى المجتمع الإيرانى الشيعى، وهناك نساء برزن فى مجال الفقه والدعوة، وفى مجلس الشورى، وإن لم يكن لهن حضور سياسى ظاهر. وتشارك الفتيات فى تشكيلات حرس الثورة، وقد افتى الخمينى بأن الاختلاط مباح فى ظل الاحتشام، ولكن عادات للمجتمع المحافظ تغلبت، ففى التجمعات تجلس النساء فى جانب والرجال فى جانب آخر، وكذلك فى دروس الجامعة، والمؤتمرات، وللحاضرات، وحفلات الزفاف، والمواصلات العامة والشواطئ والأندية الرياضية. ولكن الاختلاط قائم فى دواوين الحكومة، والمرأة تعمل فى كثير من المجالات. وجماعات الضغط للمحافظة التى تضم الفقهاء التقليديين وأتباعهم من الشباب المندفع تسعى إلى إبقاء للمجتمع المنفصل وتوسيع نطاق العزل بين الجنسين وتقليص مجالات التوظيف أمام النساء. ولكن عندما تقلع الطائرة من طهران فإن كثيرا من للحجبات يكشفن شعورهن ويظهرن المساحيق الكثيفة، ويخلعن المعاطف الفضفاضة، مما يدل على أن واجهة الإسلام التى رفعت فى طهران لم تترجم تماما إلى واقع إيمانى كما يقول فهمي هويدى.

□□□

أعيدت صلاة الجمعة إلى مجتمع الشيعة فى إيران بعد تنصيب الخمينى نائبا للإمام. واعتبروا صلاة الجمعة عبادة ولها أهداف سياسية وصار منبر الجمعة منصة للتوجيه السياسى، ومن فوقه تعلن المواقف وتذاع الأخبار. ويذكر فهمي هويدى دليلا على أن خطبة الجمعة تحولت إلى توجيه سياسى ودينى، أن خطيب الجمعة

فى طهران هو رئيس الجمهورية (على خامنئى) وحجة الإسلام هاشمى رافسنجانى رئيس مجلس الشورى، وهكذا فى بقية المدن فإن خطباء الجمعة هم رجال القيادة. وموقف الشيعة الإمامية فى إيران من التلفزيون والفن عموماً، قد تأثر بما أعلنه الخمينى فى البداية فى كتابه (تحرير الوسيلة) بأن لهذه الأجهزة منافع مشروعة ومنافع محرمة، فيجوز الانتفاع بالحلال ولا يجوز الانتفاع بالحرام، ولكن الأمر اختلف بعد ذلك.

وأما موقف الشيعة فى إيران من أهل السنة فلا يزال إلى حد ما متأثراً باختلافات الفرق الإسلامية القديمة، بما فيه من سب الخلفاء الراشدين الثلاثة، وزيارة العتبات المقدسة فى العراق بديلاً عن الحج إلى مكة، مما يحتاج إلى مراجعة، وكذلك فإن الحملات التى يشنها السلفيون والوهابيون على الشيعة تحتاج أيضاً إلى مراجعة، مع ملاحظة أن فى إيران سبعة ملايين إيراني من أهل السنة، وإن كان الدستور الإيرانى ينص على أن الدين الرسمى لإيران هو الإسلام والمذهب الجعفرى الاثنى عشرى، كما ينص على أن المذاهب الإسلامية الأخرى التى تضم المذهب الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى والزيدى تتمتع باحترام كامل.

وبعد أن أصبح المذهب الشيعى دولة فى إيران وصار رجال الدين الشيعة هم رجال الحكم والسلطة فهل تغير موقفهم من أهل السنة عموماً ومن سب الخلفاء الراشدين الذى يثير مشاعر أهل السنة خصوصاً؟

الإمام الخمينى فى كتابه (كشف الأسرار) الذى صدر فى الأربعينات تضمن نقداً لأبى بكر وعمر وذكر أنهما خالفاً لنصوص القرآن بحرمان السيدة فاطمة الزهراء من ميراث أبيها ﷺ والادعاء بأن الحديث الشريف نص على عدم توريث الأنبياء. وفى كتابه (تحرير الوسيلة) أفتى الخمينى بأن الصلاة وراء الإمام السننى باطلة وأن صلاة الجمعة فى غياب الإمام لا تجوز. ومثل هذه الفتاوى حذفت من الطباعات العربية للكتابين. لكن الخمينى عاد بعد الثورة إلى إصدار فتاوى بجواز

صلاة الشيعة في جماعة مع أهل السنة، واتباع الشيعة لأحكام أهل السنة في الوقوف بعرفة والمزدلفة في الحج حتى لو حدث القطع بخلاف ذلك عند علماء الشيعة. بل إن منظمة الإعلام الإسلامي بطهران أصدرت كتاباً بعنوان (حول الوحدة الإسلامية) جاء فيه: (إن طرح مسألة تقسيم المسلمين إلى سني وشيعي وحنفي وحنبلي وإخباري لا معنى لها أساساً. وللجتم الذي يريد أفراد جميعاً خدمة الإسلام والعيش تحت ظلاله لا ينبغي أن يثير هذه المسائل). وهذا اتجاه جديد في الفكر الشيعي. وتأكيداً لهذا الاتجاه أصدر الخميني بياناً في ٢٦ يوليو ١٩٨٠ م قال فيه: على الإخوة الشيعة والسنة اجتناب كل اختلاف، فالاختلاف بيننا اليوم هو لصالح الذين لا يؤمنون بالسنة ولا بالشيعة.. هؤلاء يريدون القضاء على هذا وذاك، فهدفهم هو بث الفرقة بينكم.. عليكم أن تتنبهوا جيداً إلى أننا جميعاً مسلمون، واتباع القرآن، وأهل التوحيد. وفي موسم الحج الذي يليه أصدر الخميني بياناً قال فيه: (إن إثارة الخلافات بين المذاهب الإسلامية تعتبر من الخطط الإجرامية التي تدبرها القوى المستفيدة من الخلافات بين المسلمين). وبذلك فإن الرسالة التي وجهت إلى الحجاج الشيعة في السنة الأولى للثورة هي الأولى من نوعها من مرجع شيعي كبير منذ قرون بعيدة، ويعلق فهمي هويدى عليها بقوله: إنه لم يحدث من قبل أن حث فقيه شيعي أتباعه على الصلاة وراء أهل السنة، إنما العكس هو الصحيح، والمستقر بين فقهاء الشيعة «بطلان الصلاة وراء أهل السنة»، كذلك فإن إعادة صلاة الجمعة رسمياً في جميع أنحاء إيران اعتبرت مؤشراً إيجابياً في اتجاه (تطبيع) العلاقات مع أهل السنة، وهذا الموقف تحفظ عليه فقهاء النجف في العراق وعلى رأسهم آية الله الخوئي وظل على الرأي التقليدي الذي لا يجيز صلاة الجمعة في زمن غيبة الإمام (المهدي المنتظر).

والجديد في فكر الشيعة في إيران - ما يذكره فهمي هويدى - الاتجاه إلى التقريب بين الشيعة وأهل السُّنة، وفي هذا الاتجاه عقد أول مؤتمر باسم (مؤتمر أئمة الجمعة والجماعة) بطهران في أبريل ١٩٨٤ ودعى إليه فقهاء من أهل السُّنة والشيعة كانوا يتناوبون إمامة الصلاة طوال فترة المؤتمر. وفي كلمة الافتتاح قال السيد على خامنئى رئيس الجمهورية: (الوحدة الإسلامية واجب ديني إضافة إلى أنها حركة سياسية.. والمقصود من الوحدة ليس إزالة الاختلافات الفكرية والفقهية بين المسلمين، وليس دفع المسلمين إلى اعتناق مذهب فقهي معين، فمثل هذه الاختلافات لا تحول دون وحدة المسلمين، ولقد حاول نفر من المتلبسين بلباس علماء الدين من عملاء القائمين على أمر تنفيذ عملية التجزئة في عالمنا الإسلامى أن يشيع فكرة استحالة الوحدة بين المسلمين متذرعاً بوجود الاختلاف بين الفرق وخاصة بين الشيعة وأهل السُّنة، وهذه لا تصدر إلا عن جاهل بالإسلام ومعنى الوحدة الإسلامية) وكرر خامنئى الآيات ١١٨ - ١١٩ من سورة هود: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ مُمَخَّلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ و ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتزَعَّرُوا عَلَيْهِمْ أَلا حَسَـبُكُمُ ﴿١١٩﴾﴾ سورة الأنفال الآية ٤٦. وفي الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف فى العام الهجرى ١٤٠٢ دعا آية الله منتظرى إلى إقامة (أسبوع الوحدة الإسلامية) فى هذه المناسبة من كل عام.

ويذكر فهمي هويدى أن التعليمات صدرت بوقف إعادة طبع الكتب القديمة التى تضمنت تجريحا لأهل السُّنة، والعهد فى ذلك على آية الله على المشكىنى رئيس مجلس الخبراء فى الوقت الذى زار فيه فهمي هويدى إيران، وتوقف الأئمة والمبلغون عن إثارة أى موضوع يحس أهل السُّنة من فوق المنابر العامة.

وهذا الخط انعكس فى كتب المراحل التعليمية التى وضعت بعد الثورة الإيرانية، وقد لاحظ فهمي هويدى أن هناك كتباً دينية خاصة للتلاميذ المسلمين وكتباً أخرى

لغير المسلمين تركّز على القدر المشترك بين الأديان من إيمان بالله ودعوة إلى الفضائل والخير والعدل.. الخ، أما كتب المسلمين فإنها تختلف في محتواها، فالكتب التي تدرس في مناطق الشيعة تذكر أن النبي ﷺ أوصى بأن يخلفه علي بن أبي طالب، لأن قضية الإمامة ركن من الإيمان في المذهب الشيعي وهي من أهم الاختلافات بين السُنّة والشيعة. ولا تذكر الكتب المخصصة لمناطق أهل السُنّة هذه الوصية، إنما تذكر الخلفاء الراشدين. وفي كتاب السنة الرابعة الابتدائية المقرر على التلاميذ الشيعة درس بعنوان (شيعة وسُنّة) يقول: (الإمام علي هو أول المسلمين وأفضلهم، وقد كرّس حياته لحماية الإسلام، ولم يكن يخشى في سبيل ذلك أحداً)، وفي زمن النبي ﷺ كان بعض المسلمين أقرب إلى الإمام علي، وخاضوا إلى جانبه معارك عن الإسلام الحق، هؤلاء المسلمون الذين التفوا حول الإمام عليّ أحبوه وأطاعوا وأمر النبي ﷺ وتعاليمه، قال النبي ﷺ عنهم للإمام: (أنت وشيعتك أفضل الناس في الجنة) ومنذ ذلك الحين وإلى الآن فإن الذين أحبوا علياً وآل البيت وأطاعوا الله ورسوله يسمون (شيعة) ونحن نؤمن أيضاً بأنه بعد الرسول ﷺ تتابع ١٢ إماماً من آل البيت، واحداً تلو الآخر، وهؤلاء هم أئمتنا، وقد أصبح التشيع هو المذهب الرسمي لجمهورية إيران الإسلامية. وهناك فريق آخر من المسلمين يسمون أهل السُنّة، وهم يعرفون الإمام علياً بأنه الخليفة الرابع، ويحبونه، وكل المسلمين سُنّة وشيعة يعبدون الله ويؤمنون برسوله ويؤمنون بالقرآن ككتاب سماوي ويعارضون الشرك وعبادة الأصنام ويعتبرون ذلك كفراً، هم يتبعون أحكام وتعاليم الإسلام ويعرفون بعضهم بعضاً كإخوة لهم عقيدة واحدة، وهم محبوبون لبعضهم ويعايشون ويحاربون أعداء الإسلام. وأعداء الإسلام يحاولون دائماً تعميق الاختلاف والشقاق بين الفريقين (السُنّة والشيعة) والآن يعرف المسلمون ذلك جيداً، ويدركون مؤامرات أعدائهم، ويحاولون أن يحسنوا عقائدهم كل يوم.. الخ.

وكتاب الصف الخامس المخصص لأهل السُنّة تضمن درسين أحدهما عن الخلفاء الراشدين والثاني عن أئمة أهل البيت الاثني عشر، ودرسا خاصا عن الإمام الرضا

باعتباره (عالم آل البيت). وفي كتاب الاجتماع لطلبة الصف الأول الإعدادي درس بعنوان (العلاقة بين أتباع المذاهب في إيران)، يشير إلى أن مذاهب أهل السنة يجب أن تحظى بكل احترام ولاتباعها حرية ممارسة تعاليم مذهبهم وأن يخضعوا لأحكامه. وفي كتاب الأدب للصف الأول الإعدادي قصة عن (دهاء الإمام الشافعي) في صغره وقصة عن (فراصة أبي حنيفة)..

وهكذا فإن الكتب الدراسية كما يستعرضها فهمي هويدى تدل على أن تجديد المذهب الشيعي يشمل مناهج الدراسة ويسعى إلى إزالة حدة الصراع القديم بين السنة والشيعة. وإن كانت الاختلافات بين طبيعة مجتمع السنة ومجتمع الشيعة في إيران ما زالت قائمة، فالسنة يعيشون في مناطق على الأطراف، وحظ هذه المناطق النائية من العناية أقل من حظ المناطق الشيعية في القلب، فالتنمية في هذه المناطق محدودة، وفرص التعليم ضيقة، حتى إن الأمية بين سكان مناطق السنة ٨٠٪ تقريباً، ومن الطبيعي لذلك أن تكون الكفاءات المؤهلة بينهم نادرة، وأن يكون نصيبهم من المشاركة في الحياة الثقافية والسياسية محدوداً إن لم يكن معدوماً.

□□□

وقد تبلورت سياسة الدعوة إلى التقريب في انشاء للجمع العلمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ويضم للجلس الأعلى لهذا للجمع ٢١ عضواً من علماء ومفكرين من دول العالم الإسلامي من جميع المذاهب والجنسيات، ورئيس هذا للجلس هو آية الله محمد باقر الحكيم من العراق، ونائب الرئيس هو الشيخ المولوى محمد اسحاق مدنى من إيران والامين العام آية الله محمد على التسخيرى من إيران، والدكتور محمد سليم العوا عضو فى للجلس من مصر وبقيّة الأعضاء من إيران وماليزيا واليمن ولبنان وعمان والسودان وأفغانستان، ويضم للجلس عضواً من أمريكا هو الدكتور محمد العاصى. والنظام الأساسى لهذا للجمع ينص على أنه مؤسسة علمية عالمية مقرها

طهران، ويمكن فتح فروع أو مكاتب له في أقطار أخرى. وأهداف مجمع التقريب هي: إحياء ونشر الثقافة والتعاليم الإسلامية، والدفاع عن القرآن والسنة، والسعي إلى التعارف والتفاهم بين العلماء والمفكرين والقادة الدينيين للعالم الإسلامي في العقائد والفقه وللجالات الاجتماعية والسياسية، وإشاعة فكرة التقريب بين النخبة في العالم الإسلامي ونقل هذه الفكرة إلى الجماهير، والسعي إلى تأكيد مبدأ الاجتهاد في المذاهب الإسلامية، والتنسيق لمواجهة الهجوم الإعلامي والثقافي الأجنبي على الإسلام، ودفع الظنون والشبهات بين أتباع المذاهب الإسلامية.

وأساليب عمل هذا للمجمع هي: الاتصال بالجمعيات والمراكز والشخصيات الإسلامية لنشر رسالته، والتأليف والتحقيق والنشر والتوزيع للكتب والمطبوعات والدراسات العلمية في الموضوعات المشتركة بين المذاهب الإسلامية، وإقامة المؤتمرات حول الموضوعات المتصلة بالتقريب بين المذاهب.

والتقريب في مفهوم هذا للمجمع هو... تعريف أهل المذاهب الإسلامية بعضهم ببعض، وتأكيد المبادئ الإسلامية المشتركة. والمذاهب المعترف بها في هذا للمجمع هي: المذهب الحنفي، والشافعي، والمالكي، والحنبلي عن أهل السنة. والمذهب الاثني عشرى والزيدى والبهرة من الشيعة، والمذهب الإباضي. أما المدارس الأخرى فهي إما مدارس لها أتباع، وإما أنها تريد للمذاهب القائمة، وإما أنها تعبر عن آراء فردية ولا تتقيد في عملها بمذهب معين.

والمبادئ التي يعمل من خلالها مجمع التقريب هي: أن الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان للشريعة، وحجية المصادر الأخرى رهن بكونها مستمدة منهما. والتأكد من أن هذه المذاهب قائمة على أساس الإيمان بوحدانية الله، والإيمان بالقرآن ومفاهيمه وأحكامه باعتباره المصدر الأول لدين الإسلام، وبأن السنة النبوية تمثل أحد مصدرى الدين الرئيسي، والإيمان بالبعث والحياة الأخرى، وعدم إنكار

ضرورات الدين، والتسليم بأركان الإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد.. الخ، والإيمان بشرعية الاجتهاد وحرية البحث، والاعتراف بالاختلافات الفكرية فى إطار المصادر الإسلامية الرئيسية.

والإطار الفكرى لهذا للجمع كما جاء فى نظامه الأساسى يتلخص فيما يلى:
أولاً : أن المذاهب الإسلامية جميعها لها رؤية واحدة مشتركة حول أصول العقيدة وأركان الإسلام. وأن الخلاف فى الفروع لا يخل بأصل الإسلام.

ثانياً : هناك نسبة كبيرة من النقاط المشتركة، والاختلاف بين المذاهب فى حقيقته خلاف فى المسائل الفقهيّة وهذا أمر طبيعى لاختلاف المفاهيم والاجتهادات. أما الاختلافات التاريخية فإنها يمكن طرحها فى جوهادى، ويجب ألا تترك آثارها السلبية على مسيرة الأمة الحاضرة ويمكن الوصول إلى نقاط اتفاق كثيرة حولها. وينص النظام الأساسى أيضا على تجنب الحكم بالكفر أو الفسق على مسلم، أو اتهامه بالبدعة، وقبول مشروعية لاجتهاد الملّزم بالمصادر الإسلامية الرئيسية، حتى لو كان الرأى الاجتهادى خطأ فى نظرنا، وعلى ذلك يجب النزول بمرتبة الاختلافات من الكفر والإيمان إلى مرتبة الخطأ والصواب، والتعامل باحترام عند الاختلاف، وأن يعذر اصحاب المذاهب بعضهم بعضا فيما يختلفون فيه، ويؤمنون بحرية كل مسلم فى اختيار مذهبه. ولا ينبغى أن يفرض مذهب معين دون غيره مادامنا نعترف بالمذاهب الإسلامية جميعا.

ومن أنشطة هذا للجمع أنه يعقد مؤتمرا سنويا يشارك فيه علماء ومفكرون من جميع الدول الإسلامية، كما يعقد ندوة كل سنة فى مكة المكرمة، وكما عقد للجمع ندوة فى تركيا تحت عنوان (الإيمان والكفر فى القرآن والسنة) ناقشت معايير الكفر والإيمان وفقا لمبادئ القرآن والسنة، وانتهت إلى أنه ليس لأحد أن يرمى غيره بالكفر، ولا يجوز التسرع فى إصدار الحكم بالكفر على أهل القبلة. وفى ذكرى مرور مائة عام على وفاة جمال الدين الأفغانى عقد للجمع مؤتمرا عالميا فى إيران، كما عقد

مؤتمرا عالميا فى سوريا تحت عنوان (المشروع المستقبلى لوحدة الأمة الإسلامىة). وفى مناسبة مرور أربعين عاما على وفاة الإمامين البروهيرى وشلتوت عقد المجمع ندوة عالمىة، وكذلك عقد ندوات فى تاننزاىا، ولبنان، وروسيا.

وفى عام ١٩٩٠ أنشئ فى مدينه قم الإيرانىة مركز البحوث والدراسات العلمىة تابع لهذا للمجمع، وبختص بإعداد دراسات فى علوم الفقه والكلام والتفسىر والحديث وتارىخ المذاهب وتحديد الفروق بينها، وبيان الأدلة التى يستند إليها كل مذهب فى المسائل التى يختلف فيها مع غيره، وإرساء (ثقافة التقريب العلمى بين المذاهب).

وقد قام هذا المركز بإعداد تفسير للقرآن مستندا إلى الأحاديث النبوية الموثقة وأقوال أهل البيت والصحابة والتابعين وعلماء التفسير من المذاهب المختلفة. ونشر كتاب (مجمع البيان فى علوم القرآن) من تأليف الطبرىسى (المتوفى سنة ٥٤٨هـ) وهو من أهم التفاسىر الشيعىة القربىة من تفاسىر أهل السنة، وكذلك قام هذا المركز بنشر كتاب يضم خلاصة لأهم التفاسىر عند أهل السنة والشيعه قديما وحديثا. وأعاد المركز طبع كتاب (تفسىر القرآن الكرىم) للشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق. وقد أعلن المركز أنه يسعى إلى إعداد موسوعة تضم المتفق عليه من الأحاديث النبوية، وأنه قام بتحقيق ونشر كتب أساسىة فى الفقه المقارن، والعقيدة. وأن الكتب الأساسىة التى نشرها باللغة العربىة بلغت ٥٢ كتابا، آخرها كتاب (الأحاديث القدسىة المشتركة) ونشر باللغة الفارسىة ٢٨ كتابا منها كتاب (الشيخ محمود شلتوت رائداً للتقريب بين المذاهب الإسلامىة). ومن الواضح أن للإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت مكانة خاصة عند الشيعه بعد فتواه التى اعترف بها بالمذهب الشيعى باسم الأزهر.

وفى عام ١٩٩٢ انشئت (جامعة المذاهب الإسلامىة) تابعة لمجمع التقريب. وهذه الجامعة تعد علماء وخطباء يدرسون مذهبهم والمذاهب الإسلامىة الأخرى، وتضم ثلاث كليات هى:

□ كلية فقه المذاهب الإسلامية وتضم أقسام: الفقه الإمامي، والفقه الحنفي، والفقه الشافعي، والفقه المالكي، والفقه الحنبلي، والفقه الزيدي.

□ كلية علوم القرآن والحديث، وتشمل أقسام علوم القرآن، وعلوم الحديث، والتاريخ الإسلامي.

□ كلية الفلسفة وعلم الكلام والأديان وتضم أقسام: علم الكلام والأديان والمذاهب، والفلسفة، والتصوف.

وأولوية الالتحاق بهذه الكليات للطلبة الحاصلين على الثانوية العامة الدارسين في نظام المدارس الدينية (الحوزات العلمية) والحافظين للقرآن. وفي هذه الجامعة أقسام داخلية، ومطاعم. ورئيس مجلس أمناء الجامعة هو رئيس الجمهورية الإيرانية، وينوب عنه الأمين العام لمجمع التقريب في رئاسة المجلس والأعضاء منهم: وزراء التعليم والثقافة والبحث العلمي.

وإن كان فريق من أهل السنة يتشكك في نوايا إيران في كل هذه الجهود للتقريب بين المذاهب، ويقولون: إنها ستار لتصدير الثورة الإيرانية والمذهب الشيعي إلى أهل السنة. والحجة لهؤلاء مبدأ (التقية) ويقولون: إن الشيعة يظهرون غير ما يبطنون، وحتى ما يعلنه علماء الشيعة من التخلي عن مبدأ التقية، فإن هذا الفريق يفسره على أنه أيضاً تطبيق لمبدأ التقية، وأن هذا الإنكار يخفي العكس. ومثل هذه الشكوك تستند إلى أن الشيعة مذهب باطنى لديه أسرار لم يكشف عنها كاملة.

واعتقد أنه لا بد من جهد كبير من جانب الشيعة لإنهاء بقايا عصور المسايرة والتقية، وإثبات أن ما يظهرونه هو ما يبطنون.

□□□

وكتاب الأستاذ محمد حسين هيكلم (مدافع آية الله) هو أدق كتاب في تحليل عوامل وظواهر الثورة الإيرانية التي امتزج فيها المذهب الديني بالدوافع السياسية.

يقول الأستاذ هيكل: إن بعض فقهاء القانون المصريين البارزين في القرن العشرين- مثل الدكتور عبد الرزاق السنهوري- شعروا بالحاجة إلى أن ينظروا خارج نطاق المذهبين الحنفي والشافعي السائدين في القانون وبعد أن قفل باب الاجتهاد منذ العصر العثماني، لذا اتجه هؤلاء المفكرون باهتمام بالغ إلى المذهب الشيعي الذي كان باب الاجتهاد فيه ما زال مفتوحا للفقهاء في غيبة الإمام صاحب السلطة. وقد لاحظ هؤلاء المفكرون أن الشيعة- نظرا للقمع الذي تعرضت له منذ بدايتها - احتفظت بتقاليد المعارضة للسلطات الدنيوية، لذا كانت أكثر استجابة للأفكار الثورية من أهل السُّنة التي عادة ما تحالفت مع الدولة أو خضعت لها. ولذلك كان أناس مثل السنهوري على استعداد لأخذ بعض الأفكار من الشيعة، مدافعين عن موقفهم بأن الشيعة في نهاية الأمر تمثل جزءا مهما من تراث الإسلام. وقد قام شيخ الأزهر أيام حكم عبد الناصر، الشيخ محمود شلتوت الذي كان يؤمن ببعض الأفكار التقدمية، بتشكيل لجنة في الأزهر أوكل إليها مهمة تقليل الخلافات بين المذاهب الإسلامية المختلفة، لذا كان الخميني يعتبره آخر شيوخ الأزهر العظام.

ومعنى ما يشير إليه الأستاذ هيكل أن بعض أهل السُّنة تقدموا خطوات نحو الشيعة، وأن بعض أهل الشيعة تقدموا أيضا نحو السُّنة، وقد سمح بذلك- دون شك- المراجعات التي تمت في المذهب الشيعي، والتراجع عما كان يثير ويستفز مشاعر أهل السُّنة من سب الخلفاء الراشدين وتحريم الصلاة خلف الإمام السُّني وغير ذلك من أفكار يمثل التنازل عنها خطوة مهمة لنزع فتيل الصراع الطويل بين أهل السُّنة والشيعة حول الماضي، دون أن يكون بينهما خلاف حول قضايا الحاضر والمستقبل.

وفي البحث عن جذور الثورة الشيعية الإيرانية. يقول الأستاذ هيكل: إن السبب الاقتصادي كان ضمن دوافع الثورة، وهذا شيء جديد لم يلتفت إليه الدارسون لشيعة إيران، وهو أن علماء الدين الشيعة لا يتقاضون مرتبات من الدولة، كما هو

الحال في البلاد السُّنيّة، لكنهم يعتمدون على التبرعات الخاصة (الزكاة والخمس) لكن جشع الأسرة المالكة وبعض الشركات الأجنبية متعددة الجنسية كانا السبب في إرهاب السوق الذي كانت تأتي منه هذه التبرعات، وبذلك انخفض دخل الحوزات وآيات الله انخفاضاً شديداً. كذلك أشار الأستاذ هيكل إلى تحول جديد في المذهب الشيعي وهو إعلان الخميني بأن الإيرانيين قد وصلوا إلى مرحلة النضج والاستقلال. تجعل مبدأ التقية الذي أساءوا تطبيقه كثيراً في الماضي لا لزوم له على الإطلاق، ولكن لم يتضح إن كان هذا هو رأي آيات الله جميعاً أو هو رأي الخميني وأتباعه فقط، كما لم يتضح إن كان ذلك مجرد رأي أو هو جزء من تجديد للمذهب.

وما أشار إليه الأستاذ هيكل عن طبيعة الشخصية الشيعية الإيرانية يستحق أن نضعه في الاعتبار عند الحديث عن شيعة إيران وعن الشيعة عموماً، وهو أن المذهب الشيعي يتسم بنوع من الحزن المُساوي، فالتوتر والحزن هما السمات الواضحتان في احتفالات الحرم الخاصة بإحياء ذكرى استشهاد الحسين، ولا يمكن للمشاهد أن ينساها أبداً. إذ تتضافر عمائم رجال الدين السوداء مع الشادور الأسود الذي ترتديه النسوة لتؤكد هذا الإحساس بالحزن.. فهم ولمدة ألف عام ينتظرون عودة الإمام للحرر المخلص، وهذا الإحساس بالحزن وبالمأساة الذي يتخلل عقيدتهم وتاريخهم هو الذي يخلق هذا الخليط المتفجر في المجتمع الشيعي.

□□□

ويبدو أن ثورة الخميني الشيعية كانت امتداداً لثورات وحركات فكرية ثورية ملأت تاريخ الشيعة، فالمذهب الشيعي تأسس في الأصل من حركة سياسية ثورية رافضة للخلفاء الراشدين، ولحكام الدولة الأموية والعباسية. وفي العصر الحديث فإن من أعظم مفكري الإسلام الذين يجلبهم قادة الثورة الإيرانية جمال الدين الأفغاني، الذي كان يرى أنه لا ينبغي على الدول الإسلامية أن تخشى الهجوم

العسكري الغربي المباشر (وإن كان ذلك قد أدى إلى احتلال مصر) بقدر خشيتها من الأثر الهدام الخفى للفكر الغربي عن طريق الآثار المخربة للمادية والعقلانية والجماعات التبشيرية، فهذه المؤثرات كلها هي التي أدت بالعالم الإسلامي إلى هذه الحالة من الضعف التي يعاني منها، لكن إذا ما فكر المسلمون في دينهم وفهموه حق الفهم، فمن المحتمل أن يكون لديهم من القوة الكافية لمقاومة الغرب ماديا وروحيا. والإسلام- كما قال الأفغانى- أكبر بكثير من مجرد كونه صلوات وشعائر، بل ينبغي أن ينظم كافة أوجه المجتمع.. علاقة الإنسان بأخيه.. وعلاقته بسلطات الدولة.. وعلاقة الدولة بالدول الأخرى، ولو أدرك الناس ذلك فقط لكان الإسلام هو الدين الكامل الشامل، لكن الأمر يحتاج إلى نهضة وإصلاح ديني.

والأفغانى ولد في إيران إلا أنه كان يفضل أن يعده الآخرون سنيا من أفغانستان كما يدل على ذلك اسمه. وكان يرى أن إيران هي إحدى الدول التي يظهر فيها أثر الغرب الهدام بشكل واضح للغاية، وظهرت آثار هذه الأفكار بعد ذلك عندما منحت حكومة الشاه في عام ١٨٩٠ امتيازاً إلى رجل إنجليزي يدعى ج. ه. ف. تالبوت يقضى بحقه في احتكار إنتاج وبيع وتصدير كل الدخان الإيراني لمدة ٥٠ عاماً مقابل ١٥ ألف جنيه استرليني سنوياً للشاه ويعود صافي الربح إلى الشركة البريطانية، فتحرك علماء الشيعة لمقاومة التدخل الأجنبي، وأصدر زعيم للجهديين في ذلك الوقت (ميرزا شيرازى) فتوى بأن شراء واستعمال الدخان رذيلة، فأطاع الناس هذه الفتوى بإجماع مدهش، وانتشرت المقاطعة والإضرابات، فتم سحب الامتياز، ولحقت الهزيمة بالحكومة وبأصحاب الامتيازات الأجنبي بسبب ذلك الاتحاد الذى قام بين رجال الدين والإصلاحيين، وقد طرد الأفغانى من إيران عام ١٨٩١.

وهكذا سارت حركة التجديد والإصلاح فى الفكر الشيعى فى إيران بامتزاج ما هو دينى بما هو سياسى، وليس ذلك غريباً على المذهب الشيعى على أية حال لأنه منذ

البداية كان سياسيا واصطبغ بالصبغة الدينية بعد ذلك وظل كذلك إلى اليوم. والتجديد في الذهب الشيعي ليس مقصورا على العقائد والسياسة فقط ولكنه امتد إلى الأمور الاقتصادية على النحو الذي شرحه الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا في كتابه (الثورة الإيرانية- الجذور- الأيديولوجية). وأهم ما في البنية الفكرية للنظام الاقتصادي عند الشيعة موقفهم من ملكية الأرض. فهم يقولون إن منابع الثروة الطبيعية التي تتصل اتصالا مباشرا بحياة الناس لا ينبغي أن تكون ملكا لأحد، والمالك المطلق لها هو الله، ولهم في ذلك نظرية متكاملة تحتاج إلى تفصيل